

## عبدالرحمن حسين النعمة .. عبدالعزيز ناصر يخلق عالياً

لم أ حظ بشرف التعرف شخصياً على الموسيقار الراحل عبدالعزيز ناصر عن قرب، ولم أجمع به أو ألتقيه إلا فيما ندر وبشكل عارض. إلا أنه كان حاضراً بشكل دائم في ذاكرة جيلنا من خلال أعماله الرائعة وأخلاقه العالية والتزامه في وسط طالما كان يُنعت المنتمون إليه بصفات غير مناسبة، فقدم نفسه كمثال نموذجي رائع للفنان المحترم مخلفاً وراءه كنوزاً من الألحان الراقية والكفيلة بتخليد اسمه في سجل الفن العربي والعالمية.

وقد سعد إلى قمة التلحين من خلال الموهبة التي صقلها بالثقافة والعلم وعبر رحلة من العطاء امتدت إلى خمسين عاماً. لم يكن عبدالعزيز فناً متميزاً فحسب بل كان صاحب رسالة وفكر وقد ارتبط منذ بداياته بقضايا وهموم وطنه وأمه العربية والإسلامية والتعبير عنها من خلال موهبته التلحينية وقدراته الموسيقية الفذة.

ومن يتتبع سيرته الذاتية يدرك أنه كان يملك منذ البداية منهجاً ومشروعاً للنهوض بالموسيقى القطرية والارتقاء بها إلى آفاق رحبة تتجاوز المحلية والوصول بها إلى المحيط العربي والإسلامي والإنساني. فبدأ بتطوير وإحياء الأغاني التراثية القطرية ثم تحول إلى اللون العاطفي مروراً بالأغاني الوطنية ووصولاً إلى الأغاني القومية والإنسانية.

ومن المثير للإعجاب فعلاً أن يتمكن عبدالعزيز بفضل قدراته القيادية المبكرة من تأسيس فرقة الأضواء القطرية وتحمل مسؤولية رئاستها لمدة خمس سنوات متتالية وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من العمر.

ومنذ سنتين تقريباً وبالتحديد في شهر أكتوبر عام 2014 أمديني صديق كريم مشترك كان على اتصال دائم بعبدالعزيز باخر عمليين قوميين له وهما «قمعستان» و«سفينة الأحزان». ولم يتسن لي الاستماع إليهما فقد كنت على وشك السفر في إجازة إلى جنوب فرنسا فأخذت العمليين معي وقابلت أصدقاء لي من المغتربين العرب في فرنسا حيث قمنا برحلة بالسيارة امتدت لـ 6 ساعات ذهاباً وإياباً بين مدينة «نيس» الفرنسية ومدينة «بورتو فينو» الإيطالية.

وقد أتاحت هذه الساعات الست لعبدالعزيز وموسيقاه الرائعة مرافقتنا في هذه الرحلة الممتعة وسط طبيعة خلابة ما بين سهول ممتدة وأودية نصرية وجبال شامخة. ومن خلال هذا التمازج البديع من نوعه ما بين الطبيعة والموسيقى أحسسنا وكان تنافساً جميلاً نشب بين عمق كلمات نزار قباني وسحر موسيقى عبدالعزيز وبتناغم تام مع انسياب الطبيعة وجمالها.

وحسبي أن نزاعات عديدة نتجت عن هذا اللقاء ما بين هذين العملاقين المبدعين. فتواجه صدق الكلمات مع هذه الربوات الخضراء الجميلة، وصوت الموسيقى مقابل صمت الطبيعة، وهذا النسق الموسيقي البديع والإيقاع المتباطئ حيناً والمندفع حيناً آخر في مواجهة مكونات هذه الطبيعة الخلابة من هضاب وأودية وشعاب تتداخل وتتدفق من كل صوب راسمة لوحات فنية في غاية البهجة والإبداع.

سيطرت ألحان عبدالعزيز على الأجواء بدون منازع واستحوذت تماماً على تركيز وإعجاب الأصدقاء وأخرجتهم من أجوائهم في الغربة لتحملهم من جديد إلى وطنهم الأم وأظهرت ما عصت به أنفسهم من ظلم أوطانهم الأصلية لهم واضطراهم للهجرة إلى الخارج. وعبر أحدهم عن انبهاره بهذه الألحان قائلاً «لقد قرانا كلنا هذه الأشعار لنزار قباني، لكن عبقرية هذا الملحن تكمن في وضعها في قوالب موسيقية رائعة ومعبرة بدقة عن مضامينها العميقة، وهذا يجعلها أشد عمقاً وتأثيراً في نفوس ومشاعر المستمعين إليها».

ووسط آهات الإعجاب وطلب الأصدقاء الاستماع إلى المزيد من أعماله، استعنت بـ «الأيود» الخاص بي فتوالت روائحه الواحدة تلو الأخرى. «أه يا بيروت.. يا عراق.. نشيد الشباب.. قطر مهد العلاء.. هذي قطر أم الكرم والوجود.. فلسطين.. الله يا عمري قطر.. سائلوا القدس.. وقصيدة القدس» التي بلغ اللحن فيها درجة عالية من الإتقان في التعبير عن مضمون الأغنية الفكري المتمثل في القضية الفلسطينية وما زالت هذه الأغنية تحتل مكانة خاصة في نفوس المستمعين وتسنأثر بمشاعرهم حتى اليوم وهي تعد من أعظم الأعمال الموسيقية التي لحن للقدس.

ثم جاء النشيد الرسمي لدولة قطر «قسماً» والذي جاء لحنه مفعماً بالحماسة ومعبراً ببراعة عن المعاني الوطنية التي يحملها هذا النص الرائع الذي كتبه بإبداع الشاعر الشيخ «مبارك بن سيف آل ثاني». ثم تلا ذلك مجموعة من أغانيه العاطفية الرائعة مثل «عندي أمل.. ولهان ومسير.. تدورفنا.. دنيا.. هاضني.. أصدر للورق همي.. ولاتسأليني» وغيرها من الأغاني التي كانت علامات فارقة في تاريخ عبدالعزيز ناصر وشكلت جزءاً رئيسياً من تاريخ الأغنية القطرية.

ومن خلال جميع هذه الأعمال يتبين لنا بوضوح أن عبدالعزيز ناصر كان يحمل إحساساً عميقاً بالكلمة وكان في حالة بحث دائم عن الكلمة الراقية والجميلة ولذلك كانت لديه علاقة خاصة ومتينة بالشعر الفصيح فتعامل مع كبار الشعراء كنزار قباني وسميح القاسم والشيخ مبارك بن سيف آل ثاني والدكتور حسن النعمة وهارون هاشم الرشيد ومعروف رفيق وغيرهم.

بعد انتهاء الرحلة وعودتنا إلى مدينة «نيس» تعظم شعوري بالفخر تجاه هذا الموسيقار القطري الذي تمكن من إيصال فنه وموسيقاه إلى هذه المرتبة العالية ولم يتركني أصدقائي إلا بعد أن وعدتهم بإرسال نسخ كاملة من أعماله إليهم وذلك ما تم فعلاً بعد عودتي إلى الدوحة.

ومن الإحراق القول إن عبدالعزيز ناصر يُعد ثروة قومية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى فقد حمل على أكتافه مسؤولية النهوض بالأغنية القطرية وتدقق إبداعه في كل صروب الأغنية العاطفية والوطنية والقومية والإنسانية تاركاً إرثاً ناصعاً لا يُجارى من الألحان الرائعة والراقية.

وللمحافظة على هذا الإرث أتمنى أن يصدر كتاب شامل لحصر جميع أعماله وإبراز دوره الرائد والتاريخي في تطوير الأغنية القطرية وإسهاماته وجهوده في تعزيز دور الموسيقى السامي في التعبير عن هموم وقضايا الأمة العربية والإسلامية.

كما أقترح أن تقوم الجزيرة الوثائقية المعروفة بانتشارها عالمياً بإنتاج فيلم وثائقي عن الموسيقار الراحل. رحم الله عبدالعزيز ناصر وأسكنه فسيح جناته..

جريدة الوطن القطرية © جميع الحقوق محفوظة